متى نصر الله؟

تحب بعض الجماعات الإسلامية أن تسجل في أبجديات أدبياتها أن النتائج لا تهمها، وأنها غير مسؤولة عنها يوم القيامة، وأن عليها فقط تقديم الأسباب والدعوة، ونشر الخير، ومن ناتج هذا الرأي والفكر أن إقامة الدولة الإسلامية، أو استعادة الخلافة، أمر يعطيه الله هدية حين يرى صلاح الأمة وتأهلها لذلك.

ولنا أمام هذا أن نقارن بين هذا الطرح وبين الطرح الصهيوني الذي قام عليه مؤتمر بازل في سويسرا، والذي قال فيه تيودور هرتزل ومن حوله من الأقطاب أن دولة إسرائيل ستقوم بعد خمسين سنة، وقامت بالفعل في هذا الوقت الذي حددوه لها.

إن الذين يتملصون من النتائج تحت مبررات وذرائع عدة، منها «أن الله هو الهادي» و«أنك لا تهدي من أحببت» و«أن الله هو الممكن» وأنه «المورّث الأرض لمن يرى فيه الصلاح» و«أنه هو المغير للأوضاع» و«أن على الناس أن يغيروا أنفسهم»، أناس لا يفهمون سنن الكون ونواميسه، وإلا فلماذا يتملص من نتائج الزرع من كان هو الزارع أو الباذر..؟!!

صحيح أن صلاح الزرع من الله، غير أن اختيار نوعية الحبوب، وتوفير السماد، وفنيات طرق الري، والتعهد، وإقامة بيوت البلاستيك، ومقاومة الأوبئة والأمراض التي تهلك النبتة.. كل ذلك المسؤول الأول والأخير عنه هو الإنسان الزارع، أما إلقاء بذرة كيفما كان الأمر وتركها لمصيرها الذي قد يلتقطها فيه طائر بعد ساعة من بذرها، فمجرد عبث

وعمل غير مسؤول. فهل يستوي من يقدم الإسلام للآخرين بأسلوب قوي ومتابعة جيدة، حتى إذا لم يسلموا، بالذي يقدمه بأسوإ صورة وأتعس عرض؟!!

إن النتيجة قد تكون واحدة في الحالتين وهو أن لا يؤمن المدعو، غير أن السؤال المطروح هو:

لماذا لا يؤمن؟!!

فالذي لم يؤمن في الحالة الأولى مع استفراغ الجهد في تقديم الإسلام له قد يكون ميسراً للكفر لسوئه، وهذا حال قوم نوح عليه السلام.

أما الذي لم يؤمن في الحالة الثانية فقد يكون ميسراً للخير، وكان فقط ينتظر الأسلوب الجيد والعرض الحسن ليؤمن، لكنه لما لم يجد ذلك بقي على كفره إلى أن يأتيه من يقدّم له الخير بطريقة أحسن، لذلك فإن مسؤولية بقاء المدعو على كفره في الحالة الثانية تقع على عاتق الداعية، وهذا هو الفرق بين استفراغ الجهد وتقديم أقصاه الممكن وترك النتائج بعد ذلك على الله تعالى، وبين التقصير وتحميل النتائج للأقدار ولإرادة الله تعالى مع عدم تحمل شيء منها رغم التقصير الفادح، وهنا يصلح الحديث الشريف: «اعقلها وتوكل».

فالذي يعقلها جيداً يكون قد قدّم الأسباب الكونية، وقد يحدث أن تنفك الناقة وتهرب رغم تقديمه الأسباب، وقد تتعرض للسرقة، وقد.. وقد.. لكنه لن يكون مقصّراً، أما الذي لم يعقلها بطريقة جيدة، وشردت، فإنه لا يمكن أن يتحدث عن براءة مسؤوليته في الموضوع.

هناك اليوم علم منضبط اسمه «بيداغوجيا الأهداف»، وهو علم

يرسم الهدف الغائي، ثم الهدف العام، ثم الأهداف الخاصة والوقائية، ويتم ضبط ذلك بإطار زمني عامّ مجزئ إلى أزمان جزئية لكل مرحلة، وهكذا يتم التحكم في العمل، وتطبّق هذه الطريقة في الصناعة والتربية، وحتى في التنمية عند الدول، إذ نلاحظ خطة سنوية أو خمسية أو غير ذلك.

وبتبني هذه المعايير الدقيقة يمكن للمرء أن يحاسب نفسه، كما يمكن لغيره أن يحاسبه، فإذا ما تأخر مشروع في مستواه، أو وقت إنجازه عُرف أن هناك تقصيراً يجب أن يستدرك. أما إذا قيل: «نحن نعمل والنتائج على الله، قد تأتي بعد عام أو بعد مائة عام»، فهذه مشكلة كبرى، فكيف يمكن محاسبة أصحاب المشاريع الإسلامية والدعاة والمنظّرين والعلماء وهم يختارون أو يتبنون طريقة العمل خارج الزمن، أو يرون ذلك من الدين؟!!

إن الأمر شبيه بالانتخابات في الغرب والانتخابات في العالم الثالث.. ففي الغرب يتحدث المرشحون في حملاتهم الانتخابية بأرقام ووعود دقيقة، فمثلاً يقول المرشح: إذا فزت سأخفض التضخم الاقتصادي من (كذا) إلى (كذا) أو يقول: أقضي على البطالة بنسبة كذا، أو: أوفر (كذا) منصب شغل.. وانطلاقاً من هذه الوعود الدقيقة يمكن محاسبة المرشح بعد ذلك وهو في منصب المسؤولية.. أما في العالم الثالث، فيَعِدُ المرشح منتخبيه بالرفاهية وتحقيق العزة والكرامة، وهذه كلها ألفاظ غير منضبطة، فكيف سيحاسَب عليها بعد ذلك إن كان حققها فِعْلا أم لا؟!!

إن الذي يعمل دون أن يكون يوم النصر في رزنامته، إنسان لن يصل لغير الفشل، والعجيب أن «النصر» عند بعض الجماعات يتم إخراجه من

المسؤولية عن طريق ليّ أعناق نصوص دينية، وبذلك يحدث التهرب من المسؤولية.. وإلا فهل يمكن أن يقول لي قائل متى تمت محاسبة أو محاكمة زعماء الجماعات الإسلامية والأقطاب الدينيين من علماء ودعاة ومنظرين أمام أتباعهم.

إن من المفروض بعد مائة عام من الزرع دون ظهور حصاد معتبر أن توقف الجماعات الإسلامية منظريها وزعمائها أمام حاجز المحاكمة، وأن تسائلهم عن سبب تأخر النصر.. بل من الواجب على الأتباع أن يسألوا الذين يقودونهم في مشاريع دينية:

متى سنصل؟!!

وعلى المنظرين والزعماء أن تكون لهم أجوبة منضبطة ودقيقة، ولا بأس أن يكون فيها هامش للخطأ ولو بعشر سنوات، لكن أن لا تكون هناك إجابة البتة، ويبقى المجال مفتوحاً على اللانهاية الزمنية، كما تبقى النتائج المرحلية غير واضحة ولا مضبوطة، فتلك أم (الدواهي).

إن السؤال (متى نصر الله؟) مشروع، وإلا لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه..؟ ولما أجاب عنه الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿حتى يقول الرسول والذين معه: متى نصر الله؟ ألا إن نصر الله قريب..﴾

إن العلم بأن هناك يوماً للنصر أمر يخفف المحنة، فمتى علِم المبتلى المعذب أن النهاية ستكون لصالحه، صبر وصمد أكثر، لذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم في أوقات اشتداد المحنة يذكر النصر القادم، والفرج الآتي، فحين جاء إليه الصحابة رضي الله عنهم وهو في ظل الكعبة، وشكوا له ما أصابهم، ذكّرهم بما أصاب مَنْ قبلهم من

الأنبياء والمؤمنين الذين كان الواحد منهم يمشط بأمشاط الحديد، أو يقطع فلقتين لا يصده ذلك عن دينه شيئاً.. لكنه ركز على أمر هام وهو: «وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»

إن قضية مجيء النصر أمرٌ لا مجال لمناقشته، لكن لا يجب الاستعجال، وإذا قلنا لا يجب الاستعجال فإن ذلك لا يعني أن يخطف الدعاة الفاشلون هذه الكلمة ليتخذوها لباناً يعلكونه في وجوه أتباعهم متى سألوهم: «متى نصر الله؟» فيردون عليهم: «ولكنكم تستعجلون» ويبقى الأتباع ينتظرون النصر ولو كان مرحلياً، عقداً وعقدين وخمسة عقود وعشرة، ولا شيء في الأفق، والدعوات التي لا تظهر بوادر نصرها في السنوات الأولى تذوب بعد ذلك في دورة الزمن وتصبح جزء من الواقع الروتيني المسيطر عليه.

لذلك فإن الاستعجال يكون في السنة الأولى، أو الثانية، أو الخامسة من ظهور الفكرة، لكنه لا يكون في التساؤل عن النصر في السنة المائة.

إن الأمة أضاعت عزتها منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ونصف، ولم يعش الإسلام طوال عمره حاكماً بحقٍّ سوى إلى آخر أيام عليّ، ثم ظهرت الفتن والقلاقل.. وقضت الأمة بعد ذلك قروناً تحاول النهوض والإصلاح، ورغم هذه القرون التي لم يستطع فيها المسلمون القيام، لا زال البعض يرد على المتسائلين عن سبب طول العثرة: «إنكم تستعجلون».

والمؤسف حقاً هو أن الانتصارات الجزئية المرحلية التي قد تتناسب مع

ضغط الواقع غير موجودة ولا واضحة.. فمثلاً قد لا يسأل المسلم عن النصر العام، لكنه يسأل عن نصر مرحلي، لكنه يواجه بتهمة الاستعجال.

إن الواقع المتردي يدل على أن الكثير من الجماعات الإسلامية إلى اليوم تقف في مفترق طرق تتخبط مثل مصروع، لا يعرف أي طريق يسلك، ولو أخذت طريق النصر فعلاً، لكان ذلك نصراً جزئياً يكتب لها، ويبقى الوصول رهين الوقت، لكن المشكل أن هذه الجماعات تبقى تراود في المفترق، تجرب مرة هذه الوسيلة، ثم تعود عنها وتستغفر، ثم تهم بالمضي في غيرها.. وهكذا.. وكل هذا دليل على أن طريق النصر يبقى بعيداً عن خطى الكثير من هذه الجماعات، لذلك فإنها لن تصل إلى النصر ولو بعد عشرة قرون.. وطوال هذه القرون العشرة ستبقى في كل مرة تستأنس بالسيرة لتقول لأتباعها ومن يسألها: «متى النصر»؟: «إنكم تستعجلون» بينما القرآن يقول: ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾.

وإذن، ففي وقت الشدة يتحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن الدين الذي سيتمه الله حتى يسير الراكب... الخ، وفي غزوة الأحزاب كان الأمر شديداً على المسلمين، فقد خرجت نحوهم إلى المدينة من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة، وقائدهم أبو سفيان، في أربعة آلاف، ووافاهم بنو سليم بمرّ الظهران، وخرجت من الشرق قبائل غطفان: بنو فزارة، يقودهم عيينة بن حصن، وبنو مرّة، يقودهم الحارث بن عوف، وبنو أشجع يقودهم مسعر بن رخيلة، كما خرجت بنو أسد وغيرها.

وكان حالهم مع ندرة الطعام والمؤن يومذاك ما وصفه أبو طلحة إذ قال: شكونا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم: «الجوع فرفعنا عن بطوننا

عن حجر حجر، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم - عن حجرين»[١٨].

وأما ما جاء عن جابر فيما رواه البخاري، فإن الصحابة، ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لبثوا ثلاثاً لا يذوقون ذواقاً.

وأحاط الأعداء بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم ليقتحموها، ويستأصلوا خضراء المسلمين، وكان الموقف عصيباً، حتى قال القرآن الكريم: ﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً..﴾ (٢٣: ١٢)

في هذا الموقف الذي تنهدّ له الجبال الرواسي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينقل الصحابة من هذه الجو الضاغط إلى أجواء النصر، ويرفع أبصارهم هناك إلى أعلى.. ولنقرأ:

«قال البراء: لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لاتأخذ منها المعاول، فاشتكينا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء وأخذ المعول فقال: بسم الله، ثم ضرب ضربة، وقال: الله أكبر أعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأنظر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب ثانية فقطع آخر فقال الله أكبر، أعطيتُ فارس، والله إني لأبصرقصر المدائن الأبيض الآن، ثم ضرب الثالثة، فقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني»[١٩].

إن المدينة تكاد تضيع، والقائد العظيم ينتقل من واقع الدفاع إلى واقع

١٨ - رواه الترمذي مشكاة المصابيح ٤٤٨/٢

١٩ - الرحيق ص ٣٤٢

الهجوم ليتحدث عن فتح الشام وفارس واليمن.

إن رسم النصر المؤكد أمام الجموع وهي تمضي في طريقها الشائك سيجعلها تفهم أن هذه الأشواك والفتن مجرد مراحل ستقطعها لتنتهي إلى موعودها، أما حين يقال للناس سيروا هكذا، ولكم الأجر، ولا نعدكم بنصر، فإن هؤلاء ستضعف قلوبهم، فأي قلب هذا الذي سيتحمل معاناة خمسين سنة لا أمل يبرق في نهايتها..؟!!

إن ضعف البشر يتطلب خطة تراعيه، خطة فيها من المُسَرِّيات ولوكانت مرحلية، ما يغري بالسير، أما تجربة النفق المظلم الطويل لعقود، والذي ليس في نهايته شيء، فقد أثبتت أن الذين يتساقطون فيها أو يفتنون عن دينهم ويتراجعون كُثُر، والمشكلة الكبرى هي أن هذه الجماعات الإسلامية التي ترفع أفكاراً ومشاريع وتسير بالناس باسم العقيدة، سرعان ما توصلهم إلى واقع فتنة يضيّعون فيه عقيدتهم لأجل فكرتهم.

إن كل الأعمال اليوم تخضع للمنهجة والتخطيط، من إقامة مؤسسة تستثمر في مجال «البطاطا» إلى إنجاح مشروع إقامة فندق بخمس نجوم، وتبقى أمور الدعوة، رغم خطرها، الوحيدة التي تسيّر بالاعتباط والارتجال... ويبقى المطلوب هو إقامة عمل بمراحل يقوم في ذيل كل منها سؤال هام، ودقيق، وهو: «متى»؟!!

والذين لا يعرفون الإجابة عن هذه الـ«متى» المعلقة يقون يرتكبون الأخطاء في حق هذه الأمة المتعبة التي اتخذوها مجرد فأر تجارب، يستعرضون فيه أفكارهم الفاشلة وطموحاتهم ونزواتهم الشخصية... يقول المباركفوري في «الرحيق»:

«ومع هذا كله، كان المسلمون يعرفون منذ أول يوم لاقوا فيه الشدة والاضطهاد ـ بل ومن قبله ـ أن الدخول في الإسلام ليس معناه جر المصائب والحتوف، بل إن الدعوة الإسلامية تهدف منذ أول يومها ـ إلى القضاء على الجاهلية الجهلاء ونظامها الغاشم، وأن من أهدافها الأساسية بسط النفوذ على الأرض، والسيطرة على الموقف السياسي في العالم لتقود الأمة الإنسانية والجمعية البشرية إلى مرضاة الله، وتخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله.

وكان القرآن ينزل بهذه البشارات ـ مرة بالتصريح وأخرى بالكناية ـ، ففي تلك الفترات القاصمة التي ضيقت الأرض على المسلمين، وكادت تخنقهم وتقضي على حياتهم، كانت تنزل الآيات بما جرت بين الأنبياء السابقين وبين أقوامهم الذين قاموا بتكذيبهم والكفر بهم. وكانت تشتمل هذه الآيات على ذكر الأحوال التي تطابق تماماً أحوال مسلمي مكة وكفارها، ثم تذكر هذه الآيات بما تمخضت عنه تلك الأحوال من إهلاك الكفرة والظالمين وإيراث عباد الله الأرض والديار، فكانت هذه القصص إشارات واضحة إلى فشل أهل مكة في المستقبل، ونجاح المسلمين مع نجاح الدعوة الإسلامية.

وفي هذه الفترات نزلت آيات تصرح ببشارة غلبة المؤمنين، قال تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون. فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون، أفبعذابنا يستعجلون، فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين﴾ (٣٧: ١٧١ ـ ١٧٧) وقال: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ (٥٤:٤٥) وقال: ﴿جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب﴾ (٣٨:١١)، ونزلت في الذين هاجروا إلى الحبشة: ﴿والذين هاجروا

في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة، ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾ (١٦:٤١). وسألوه عن قصة يوسف فأنزل الله في طيها: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ (١٢:٧) أي فأهل مكة السائلون يلاقون ما لاقى إخوانه من الفشل، ويستسلمون كاستسلامهم، وقال وهو يذكر الرسل: ﴿وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين، ولنسكننكم الأرض من بعدهم، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ (١٤:١٣، ١٤)، وحينما كانت الحرب مشتعلة بين الفرس والرومان، وكان الكفار يحبون غلبة الفرس بصفتهم مشركين، والمسلمون يحبون غلبة الرومان بصفتهم مؤمنين بالله والرسل والوحي والكتاب واليوم الآخر، وكانت الغلبة للفرس، أنزل الله بشارة غلبة الروم في بضع سنين، ولكنه لم يقتصر على هذه البشارة الواحدة، بل صرح ببشارة أخرى وهي نصر الله للمؤمنين حيث قال: ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ (٣٠:٤،٥).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه يقوم بمثل هذه البشارات بين آونة وأخرى، فكان إذا وافى الموسم وقام بين الناس في عكاظ ومجنة وذي المجاز، لتبليغ الرسالة، لم يكن يبشرهم بالجنة فحسب، بل يقول لهم بكل صراحة: ﴿يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم. فإذا متم كنتم ملوكاً في الجنة﴾

وقد أسلفنا ما أجاب به النبي صلى الله عليه وسلم عتبة بن ربيعة حين أراد مساومته على رغائب الدنيا، وما فهمه ورجاه عتبة من ظهور أمره عليه الصلاة والسلام، وكذلك ما أجاب به النبي صلى الله عليه

وسلم آخر وفد جاء إلى أبي طالب، فقد صرح لهم أنه يطلب كلمة واحدة يعطونها تدين لهم العرب ويملكون العجم.

قال خباب بن الأرت: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد، وهو محمر وجهه فقال: لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ما يخاف إلا الله ـ زاد بيان الراوي ـ والذئب على غنمه.

ولم تكن هذه البشارات مخفية مستورة، بل كانت فاشية مكشوفة، يعلمها الكفرة، كما كان يعلمها المسلمون، حتى كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تغامزوا بهم، وقالوا: «قد جاءكم ملوك الأرض سيغلبون على ملوك كسرى وقيصر، ثم يصفرون ويصفقون.

وأمام هذه البشارات بالمستقبل المجيد المستنير في الدنيا مع ما فيه من الرجاء الصالح الكبير البالغ إلى النهاية في الفوز بالجنة، كان الصحابة يرون أن الاضهادات التي تتوالى عليهم من كل جانب والمصائب التي تحيط بهم من كل الأرجاء: «ليست إلا سحابة صيف عن قليل تقشع»[٢٠].

٢٠ ـ الرحيق ص ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١